ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الانعام] أعطيناهم الصحة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الانعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الانعام] لا لهم كما في : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾ [الأنبياء] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿يَا وَيْلَنَا .. (١٤)﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسى) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو

البُؤْس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتى تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضى إلاّ أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به ، كما قال فى آية أُخْرى : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. (٥٦)﴾ [الزمر]

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ .. (١٥)﴾ [الأنبياء] أى : قولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فلا شيءَ يشفى صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول : أنا مُخطِىء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الحصيد : أى المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يشير إلى حرارتهم فى عداء الرسول وجَدلهم وعنادهم معه ﷺ ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى فى الخلْق ؛ لأنْ خلْق السموات والأرض مسألة كبيرة : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمَّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شيء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو فى النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى فى هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته فى كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة فى الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات

وهى أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]

إذن : كان يجب عليك أن تبحثَ بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهى - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التى قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شعْره وآثاره التى ادَّعاها . وهى دعوى دون دليل ؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان فهو المخلوق صاحب الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذي يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾** [يس]

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شيء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة ٣٦٥ يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها في عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ في اليوم الأول من نفس المكان ، وفي اليوم الثاني من نفس مكان اليوم الثاني ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئي أو حَلْقي ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً في نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخُّل لنا فيه أبداً .

---

(١) العرجون : هو أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض ، وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ١٤/٢] .

وفى المقابل انظر إلى أىِّ شىء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض .. الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإنْ سارت على منهج الله استقامتْ كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخالق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شىء ، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندى أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك فى الدنيا ، فأنا أخدمك فى الآخرة ، وألبِّى لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أننى شغلت نفسى بمَنْ يملكنى وهو الله تعالى لاستقام لى ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّى يكفينى من خلقى أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذى يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أننى بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هى الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالى لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا[1] لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شىء ، وقوله : ﴿ إن كُنَّا فَاعِلِينَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة فى ذاتها ، فليس لها هدف كمالى نسعى له فى الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .

---

(١) اللهو : المرأة بلغة اليمن ، قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسرة ، وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال : اللهو الزوجة ، وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد . وقاله الحسن أيضاً . [تفسير القرطبى ٤٤٥٢/٦] .

وهذا يمتنع فى حق الله سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[1] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله فى السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملى للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] القذف : الرَّمْى بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿ فَيَدْمَغُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يقال : دمغه أى : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أىِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ فى النجاة بعده .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت ـ مثلاً ـ إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجرى له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتى تحتفظ بآخر مظاهر الحياة فى الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكى .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ،

---

(١) دمغ الحق الباطل : أبطله ومحقه وأزاله . [القاموس القويم ١/٢٣٣] .

فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفى طاقته الاحتراقية فى العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذَّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعام ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْم ليُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد فى الجسم ، ومن بعده تتغذَّى باقى الأعضاء .

إذن : كل شىء فى الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء فى التربة ولم يجد النباتُ الغذاءَ الكافى يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] فالعَظْم آخر مخزن للغذاء فى الجسم ، فَوَهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ فَيَدْمَغُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يصيبه فى أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا فى عضو آخر يمكن أنْ يُجبر ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] زاهق : يعنى خارج بعنف .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : أيها الإنسان المغترّ بلججه وعناده فى الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتى كما سبق أنْ قالوا : ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنبياء] حينما يباشرون العذاب .

ومعنى : ﴿ تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيتَ شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعنى : إنْ كنت

تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل] يعني : إنْ أردتَ أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة[1] ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندي سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبي يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذي نراه اليوم !! فسار كلامه مثالاً يُضرب للكذب[2] .

لذلك قال الشاعر :

* حَديثُ خُرَافَةَ يا أُمَّ عَمْرو *

فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قولٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أي : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملي الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

---

(١) الخرافة : الحديث المستملح من الكذب . ذكر ابن الكلبي : أن خرافة من بني عذرة أو من جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذَّبوه ، فجرى على ألسن الناس » . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١٥٧/٦) عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة ، أسرته الجن في الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس : حديث خرافة » .

نقـول : الحكمـة من هذا أنْ تتم الابتـلاءات ، والناس لا نتـعـشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ ... وَالشَّعْر مثْلُ الليْل مُسْودُ
ضدَّان لَمَّا اسْتجْمعاَ حَسُنَا ... والضدُّ يُظهرُ حُسْنَه الضدُّ

إذن : لا نعرف جـمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حـلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ[1] لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحـانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فمـا المظروف فيه ؟ المظروف فيـه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. ١٩ ﴾ [الأنبياء] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإنْ كان مختاراً فى أمور التكليف فهو مقهور فى الأمور الكونية لا دَخْلَ له فيها .

فليس للإنسـان تحـكم فى مـيـلاده أو وفاتـه ، ولا تحكم له فى صحتـه وعافيته أو مـرضه أو ذكائه أو طوله أو قصـره ، إذن : فهو ملْك لله ، مقهور له ، إلا أنه سبحانه ترك له زاوية اختيار تكليفية .

أما السماء والأرض فهى مُسخَّرة مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَـا .. ٧٢ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ .. ١٩ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الملائكة الذين ذكـرتم أنهم بنات الله . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٣] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذى لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجِّه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فوصفه رَبُّه بأنه كان فى هذا العمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدرى عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السموات والأرض وهى مضطرة ؟ نقول : هى مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. (١٩) ﴾ [الأنبياء] أى : ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

﴿ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء] من حسر : يعنى ضَعُفَ وكَلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك] أى : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢) ﴾ [النساء] لأن عِزَّهم فى هذه المسألة .

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(١) ﴿٢٠﴾ ﴾

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه ؛ فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيرى وأنا خالق السماء والأرض ، وهى لى بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائكة ؟ فالجميع عَبْد لى يُسبِّح بحمدى ، فما الذى أعجبهم فى غيرى فأعرضوا عنى ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن منى ، أو أقرب إليهم منى ؟

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذى له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادى والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشىء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذى له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] أى : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شىء من خَلْق الله .

ومعنى ﴿ إِلاَّ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجىء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] يعنى : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم ؟ معنى ذلك أنها لا تفسد . فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداةَ استثناء . إنما هى اسم بمعنى (غير) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ .. (٣٦) ﴾ [هود]

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفسدتَا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

الحق - سبحانه وتعالى - يعطينا القسمة العقلية فى القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

يَقُولُونَ إِذًا .. ﴿٤٢﴾ [الإسراء] أى : لو حدث هذا ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]

السبيل : الطريق ، أى طلبوا طريقاً إلى ذى العرش أى : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة فى ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقى هو الذى خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

وقوله : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهى تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهى - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذى ظهر على لفظ الجلالة (اللهُ) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك فى هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستويةً فى صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شيء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لي . ويقول الآخر : هذه لي ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق - سبحانه وتعالى - يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه الوسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] أي : تنزيهاً لله عمَّا قال هؤلاء ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء] أي : يُلحدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذي يجلس عليه الملك ، وهو علامة المُلْك والسيطرة ، كما في قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] فحين يقول سبحانه ﴿ رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] ينصرف

إلى عرشه تعالى ، الذى لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر .

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل ؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول فى مرتبة أدْنى من السائل ؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله تعالى عَمَّا يفعل ، أمّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه فى هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صِدْقها ، كما أن الله تعالى - وهو الإله الحق - أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهى آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ

يُجابهـوا الحقائق ويدافـعوا عن أنفـسهم ؟ إذن : هم ضعـفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تـعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعـتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذى أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كـذب وافتـراء واختلاق من عند أنفـسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم فى شىء ، ولا يعنى هذا عـدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعـرضون عن سماعه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

كأن للحق سمـات يعلم بها ، فَمَنْ أقبل على معـرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعـرض عن المعـرفة ، فـمن أين له أنْ يعرفَ ؟ إذن : فـالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذن : فقضيـة التوحيد واضحة منذ بداية الرسـالات إلى خاتمها ، الكل جـاء بقول لا إله إلا الله قـضيـة مـشتـركة بين جـميع رسـالات السماء .

وقوله تعالى : ﴿ مِن رَّسُولٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء] (مِنْ) هنا للشمول والتعميم ، يعنى : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شـخص : ما عندى مـال ، لا يمنع هذا القـول أن يكون عنده قليل

من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لهـا مال ، فإنْ قال لك : ما عندى من مال فقد نفى وجود جنس المـال من بداية ما يقال له مال ، ما عندى حتى مليم واحد .

إذن : مـا جئـتم به من مـسألة الشـرك بالله أو إنكاره عـز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(١)

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومع أنهم عبـاد مكرمون إنمـا لا يسبقـونه بالقول ، فـلا يقولون مـا لم يقُلْه ولا يتـقدمـون عليـه بقـول حتى إنْ وافق مـراد الله ، ولا يفـعلون ما لم يأمـر به ، وكأن الحق سـبحـانه يعطينا إشارة لبـعض آفات المجتمع ، فمن آفـات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٤٥٧/٦) : « نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبَّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلَّلون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ[1] مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٦٢٥/٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

• • •

بعد ذلك أراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق . والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفان لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مُكوّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كُوّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكُون كله ، إذن : فلا هو كليّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه - فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .